أ. محمد الصديق بغورة -جامعة المسيلة -الجزائر

الشعر وثنائية القضية واللغة الشعرية بين أبي العتاهية ومحمد العيد آل خليفة

ملخص

استطاع أبو العتاهية أن يشق طريقا خاصا له في تاريخ أدبنا العربي القديم بمراجعة مجموعة من القيم الشعرية وتثمين نظرة جديدة إلى الشعر ولغته وغايته. خاصة وهو يرسم لشعره وجهة التزامية ذات بعد خلقي ديني. وكان لكل ذلك أثره البالغ ودوره في التغير الذي أصاب الشعر العباسي.

والشاعر الجزائري المعاصر محمد العيد آل خليفة عاش تجربة شبيهة بتجربة أبي العتاهية بالرغم من انتمائهما لعصرين مختلفين، فقد كان عليه هو أيضا أن يقوم بتغيير في لغة النص الشعري العربي ليستطيع هذا النص ذاته تحقيق عدد كبير من الأهداف أبرزها تأسيس ثقافة وأمة جديدتين، إنها الأمة الجزائرية التي كانت تصارع لتفرض وجودها التاريخي الفعلي مجموعة من الأعداء الماديين والمعنويين.

والمثقفون الجزائريون وضمنهم محمد العيد لم يكن بمقدورهم أن يبقوا مكتوفي الأيدي. كان على الشاعر محمد العيد إذن أن يخدم القضية الوطنية بعدد من الأعمال الشعرية معبرا باسم الأمة الجزائرية مستعملا لغة كان عليها الاستجابة لغايتين اثنتين، جمالية وقبل ذلك القدرة على خدمة مختلف القضايا التي كانت تفرض مستويات لغوية متباينة، فكيف كانت لغة الشعر عند كل من محمد العيد آل خليفة وأبي العتاهية.

Résumé

La poésie et la dualité cause et langue poétique
Entre aboul Áatahia et Mohammed El Aid Aal khalifa

Abou Làatahia a pu tracer une voie spécifique dans l'histoire de notre poésie arabe ancienne, en mettant en cause les valeurs poétiques, et mettre en valeur une nouvelle vision concernant la langue du poète et son but, surtout quand il a dessiné à son texte poétique une dimension morale, religieuse, et engagée. Tout cela a laissé un grand effet et un

changement énorme dans le texte poétique abbasside. Le poète contemporain Mohammed Al Aide Al Khalifa a vécu une expérience semblable à Aboul Aatahia malgré leur appartenance à deux ères différentes ; Il a du faire lui aussi un changement dans la langue du texte poétique arabe, afin que ce dernier puisse réaliser un bon nombre de buts dont essentiellement, la fondation d'une culture et une nation nouvelles, une nation algérienne qui battait pour marquer sa présence historique effective. C'est la nation algérienne qui luttait contre un nombre d'ennemis physiques et moraux. Les intellectuels algériens dont Mohammed Laid Aal Khalifa ne pouvaient jamais regarder tout cela sans réagir. Il a dû alors servir sa cause nationale avec un nombre d'œuvres poétiques, en s'exprimant au nom de sa nation, en utilisant une langue qui devait répondre au but esthétique et en même temps – et c'était primordiale- afin de pouvoir servir les différentes causes qui exigeaient des niveaux linguistiques différents, alors comment était la langue de la poésie dans ces deux expériences.

1. لماذا محمد العيد آل خليفة وأبو العتاهية؟

كلما قرئ محمد العيد آل خليفة شدت انتباهنا تلك الروح الدينية التي تتسرب إلى النص بناء ورؤية، وتلك الروح المسؤولة والإيمان الراسخ برسالة الكلمة. وقد كان اختيار الشاعر محمد العيد لهذه الوجهة الالتزامية في شعره منطلقا من الواقع التاريخي الذي عايشه وأحس بأنه يجب أن يكون جزءا فاعلا فيه. من هنا كان لشعره بعد إبلاغي أثر في بنية نصه الشعري مع نزوع هذا النص إلى تقرير مجموعة من القيم الأساس التي رأى أن يبلغها لعصره وأبناء عصره، وهو يواجه الاستعمار الفرنسي والواقع الثقافي الجزائري الذي كان المثقفون بصدد رسم ملامحه، خاصة بعد أن تشبعوا بيقينية حتمية خروج الجزائر من وضعها الاستعماري ودخولها مرحلة السيادة الوطنية التي تتطلب سيادة في القيم واللغة والمفاهيم.

كان محمد العيد آل خليفة فيما قام به حين ربط الشعر بمهمة التزم بأدائها شبيها بشاعر عباسي معروف هو أبو العتاهية الذي كان من أبرز الشعراء الذين رسموا لشعرهم رسالة رأوا أن من واجب الشعر القيام بها. ولأداء هذه الرسالة كان لا بد من لغة خاصة تستطيع الوفاء بمستلزماتها، وقد جر عليه اتجاه شعره نحو الأداء الرسالي كثيرا من الانتقاد.

وعالم أبي العتاهية الشعري يبدو قريبا من هذا الجو التبليغي التعليمي المباشر مرشحة لأن تكون لصيقة بالدين ولغة الدين فما عليها إذا أرادت أداء الرسالة إلا أن تكون مباشرة تعليمية مصوغة وفقا لما يضمن التفسير والتفصيل والبرهنة والقدرة على المناقشة القريبة مما في لغة المقال بعيدا عن شفافية الشعر وإيحائيته وإشاريته. فإلى أي مدى أثر التزام الشاعرين إلى تشابه معجمهما الشعري، وإلى أي مدى أثرت مهمتا الشاعرين في لغتيهما؟ وكيف تصرفا ليتمكن الشعر من إنجاز هذه المهمة.

2. اللغة والشعر

يعُد النقد المعاصر الشعر إنجازا لغويا خاصا له أصوله، وبناء عليه كان الاختيار لدى الأسلوبيين أبرز ظاهرة أسلوبية في الأدب (1) وانطلاقا من ذلك صار ينظر إلى جمالية النص على أساس كونها جمالية لفظية. وبالرغم من كل ذلك فإن حذق الناقد لا يستبعد ما في المعاني من جمالية إدهاش، فضلا عن عدم إمكانية فصل ما هو لغة عما هو أسلوب. صحيح أن " الشعر فن وسيلته الكلمة كما أن الموسيقى وسيلتها النغم والتصوير وسيلته اللون والرقص وسيلته الحركة ... وهكذا. وقد عرف النقاد الشعر وحاولوا أن يسبروا غوره وأن يصلوا إلى حقيقته فنظر كل منهم إلى جانب بمن جوانبه..."(2) إلا أن اللافت للنظر هو أن في الشعر كل هذه الفنون المذكورة: فيه من الموسيقى نغمها ومن الألوان صورها ومن النحت تجسيداته، لكن الخاصية الأساس في لغة الشعر كامنة في التركيز والتكثيف والإشارة غير بعيد عما قاله البحتري يوما:

كلّفتمونا حدود منطِقِكم والشعرُ يُغني عن صدقه كذبُه
لم يكن ذو القروح يَلهج بالمنطق ما نوعُه وما سببه
والشعر لمّحٌ تكفي إشارتُه وليس بالهذْر طُوّلت خُطبه"(3)

وبقليل من التأمل نهتدي إلى أبرز شروط الشعر، وفي مقدمتها الحرية؛ فلا يمكن أن يكلف الشاعر ما لا رغبة له فيه. والحرية كما هو معروف لدى علماء الجمال " فعل تحرر وليس مجرد عنصر: إنه هو الحرية لكن دون الخروج على روح القانون والنظام... يتبعهما من داخلهما.. إنه يستبعد الإرغام لكنه يستبقي النسق.."(4)

فالشعر خيال كما تشير إليه كلمة كذب لدى النقاد القدامى، وهو لمح مضاد لكل ألوان الشرح والتفصيل، لذلك كان مناقضا للطول الذي تعرف به الخطب. والتركيز على اللغة في العمل الشعري وتركيزها فيه أساسهما تلك الطاقة الفعالة التي تختزنها لغة الشاعر، والتأثير القوي الذي بإمكانها أن تؤديه إذ " كل نظرة تعيد إبداع العالم تعيد في كل مرة إبداع اللغة"(5) كما يقول بيير جيرو، الذي يؤكد هنا أن كل تغيير في بنية اللغة بدء في تغيير العالم، وأن كل تغيير في العالم طريق إلى تغيير اللغة في حد ذاتها. وهكذا فالشعر يستقي حيويته من قدرة الكلمة على التجدد التجديد والحياة والإحياء والتأثير داخل النص وخارجه.

ولا عجب بعد ذلك في أن ينصب كثير من قديم النقد وجديده حين تناول الشعر على اللغة.

3. الشعر وثنائية التشابه والاختلاف

وقد كان لأبي العتاهية (ت 211) دوره الحساس في تاريخ الشعر العربي؛ فهو لأول مرة يراجع جملة من المسلمات التي لم تكن الذائقة العربية تفكر في الاقتراب من مساءلتها: فقد لجأ إلى اللغة لعلمه بخطرها، فجعلها في معظم منجزه الشعري قريبة من لغة الحياة، أليفة إلى لغة معاصريه، غير بعيد عما أنجزه قبله بشار بن برد حين عمد إلى التبسيط في لمح شعري فقال:

ربابةُ ربةُ البيتِ تصب الخل في الزيت لها عشر دجاجات وديك حسن الصوت (6)

مع أنه أحد المقدمين في تاريخ الشعر العربي ووجهته المتعالية البعيدة عن روح العامة، فهذا قدامة بن جعفر يراه أحد أعظم المبدعين في التشبيه ويستشهد بقوله:

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا وأسيافَنا ليل تهاوت كواكبه(7)

ويكون مما رشح الشاعر لهذه المنزلة أن الصورة تحتاج بصرا والشاعر لم يكن مبصرا،(8) إنما كان ذا بصيرة فنية غذتها قراءته العميقة وتمثله الواعي لتجارب الشعراء.

لكن الفرق شاسع بين الرجلين: فأبو العتاهية اتخذ التبسيط مذهبا، ولزمه في معظم شعره في مرحلة هامة من تطور ذائقته الشعرية، في حين توقف بشار عن مثل قوله في ربابة وديكها.

والتفت أبو العتاهية إلى أوزان الشعر فراح يتصرف فيها ويرى نفسه غير ملزم بكثير من شروطها حتى قال كلمته المشهورة أنا أكبر من العروض(9)

هكذا إذن يتبين مذهب الرجل في البحث عما هو مختلف، في حين كان بشار بالرغم من افتتاحه لمرحلة جديدة في الشعر العربي ينزع قدر المستطاع إلى ما هو غير مشابه، لكنه يضطر إلى المشابه فيتوقف عن مثل قوله في الشعبي. أما أبو العتاهية فيمضي في وجهته عارفا مبتدأه ومنتهاه. فقد " روى عن أبي العتاهية سَلَم الخاسر قوله:

نغّص الموت كل لذة عيش يا لقومي للموت ما أوحاه
عجبا إنه إذا مات ميت صد عنه حبيبه وجفاه
حيثما وجّه آمرؤ ليفوت الموت فالموت واقف بحذاه
إنما الشيب لابن آدم ناع قام في عارضيه ثم نعاه
من تمنى المنى فأغرق فيها مات من قبل أن ينال مناه
ما أذل المقل في أعين الناس لإقلاله وما أقماه
فما تنظر العيون من الناس إلى من ترجوه أو تخشاه(10)

قال سلم: أنشدني أبو العتاهية هذه الأبيات ثم قال لي :كيف رأيتها ؟ فقلت له: لقد جودتها لو لم تكن ألفاظها سوقية.فقال : والله ما يرغبني فيها إلا الذي زهدك فيها."(11)ولم ينصب هذا التبسيط اللغوي على الزهد وحده بل تجاوزه إلى المدح الذي كان يتطلب كثيرا من الفخامة لغة ووزنا، فها هو يمدح المهدي قائلا:

أتته الخلافة منقادة إليه تجرجر أذيالها
فلم تك تصلح إلا له ولم يك يصلح إلا لها
ولو رامها أحد غيره لزلزلت الأرض زلزالها (12)

وهكذا فتح هذا الشاعر بشكل جدي مؤسِّس خطّا جديدا في الشعر العربي ومدرسة هي المدرسة الشعبية، ثم راح يدافع عنها مبرزا حق البسطاء في نصيب من الشعر يستجيب لذوقهم ويعالج الموضوعات التي ترضيهم.(13)وقد سبق تجربة أبي العتاهية تراث ضخم تميز بمجموعة من القيم الفنية التي لم تكن الشعراء تحيد عنها: منها أن الشعر لا يدخل باب الدين والخلق والخير والحقيقة، إنما هذا كله

مجاله النثر الإصلاحي والخطب الوعظية وما إليها من أساليب التعبير الإبلاغية المباشرة. لكن أهم ما أفرزته تلك الوجهة الشعبية التبسيطية كان الخاصية النثرية التي مزجت الشعر والنثر مع إبقاء المنغم الشعري والخصوصية الصوتية اللتين تميزان أي شعر عن النثر، كما يتضح ذلك في قوله:

يا ذا الذي في الحب يلحى أما والله لو كلفت منه كما
كلفت من حب رخيم لما لمت على الحب فذرني وما
ألقى فإني لست أدري بما بليت إلا أنني بينما
أنا بباب القصر في بعض ما أطوف في قصرهم إذ رمى
قلبي غزال بسهام فما أخطا بها قلبي ولكنما
سهماه عينان له كلما أراد قتلي بهما سلما(14)

فهذا النص المصوغ مرصعا يشتمل برويه المركز وحدة موسيقية، وهو عنصر جمالي هام، إذ بهذه الوحدة تحققت وحدة متكاملة مست النص بعمق، وكما قيل فإنه" لكي يكون العمل الفني مفهوما ومؤثرا، لا بد وأن يشكل وحدة متكاملة بذاتها"(15) وأقل ما يقال عن هذا النص أنه وحدة معنى وموسيقى، وقد ظلت الوحدة العضوية انشغالا عميقا في الرؤية الفنية العربية منذ أقدم الكتابات النقدية، مما دفع غنيمي هلال إلى التأكيد بأن هذه الوحدة التي تحققت في العصر الحديث عدت أهم إنجاز في مسار القصيدة العربية الحديثة، وإن كان يرى هذا الإنجاز ثمرة اتصال النص العربي بآداب الغرب (16)

وهكذا نجد أنفسنا أمام شاعر جديد في عصر مال أصلا إلى ما هو جديد عصر صار فيه المولدون الصوت الغالب في المرحلة العباسية. إلا أنه أراد أن ينجز بالشعر غاية اجتماعية متصلة بالزهد حين رأى الجانب المادي بدأ يهيمن على النفوس:

أفنيت عمرك إدبارا وإقبالا تبغي البنين وتبغي الأهل والمالا
للموت غول فكن ما شئت ملتمسا من حوله حيلة إن كنت محتالا
أملت أكثر مما أنت مدركه والعمر لا بد أن يفنى وإن طالا(17)

وهذه الغاية الإرشادية موجودة بشكل مكثف في شعر محمد العيد آل خليفة (1979م). (18) وإن بدت مختلفة عما نجده في شعر أبي العتاهية: ذلك أن

محمد العيد آل خليفة يبدو في شعره ملتزما بمجموعة من الغايات داخل غاية وطنية كبرى:

أ. الغاية الدينية

قال محمد العيد آل خليفة:

حمدا لمن في الحق غاث(19)وغارا ولوجهه عنت الوجوه صغارا
سبحانه زجر القوي عن الأذى وحمى الضعيف من الأذى وأجارا
الغالبِ القهارِ فوق عباده من ذا يكيد الغالب القهارا
من ذا يعقب حكمه من سوى القوى ودرى الغيوب وقدر الأقدارا
جعل الشرائع أنهجا مرضية والأنبياء أدلة أبرارا
واختص بالمنح العظام محمدا منهم فكان الخاتم المختارا
آتاه قرآنا يحض على الهدى ويفصل الأحكام والأخبارا
وشريعة تعطي الحقوق سوية للناس لا ميزا ولا استئثارا
شمس من الأفق المقدس أشرقت فارتد ليل العالمين نهارا
ومحجة بيضاء من لم يعتصم بسَوائها ضل السلوك وحارا
كم سار حزب الله فيها آمنا يهدي العباد ويفتح الأمصارا(20)

إن الغاية الدينية كما هو واضح في هذا النص قد استدعت تقاربا قويا مع النص القرآني معنى ولفظا فتجلت تناصات عديدة يمكن الاهتداء إليها بسهولة، ويمكن الاكتفاء بالإشارة إليها من خلال أسطر تحت العبارات المتناصة صراحة دون الإشارة إلى التناصات البعيدة. والتناص في هذه الحالة مع النص الديني عامة أمر طبيعي استدعيه طبيعة الموضوع.

ب. الغاية الاجتماعية

قال الشاعر محمد العيد آل خليفة في قصيدته "فتاة العصر" من البسيط:

ما بال سير فتاة العصر منحرفا يهوي بها في مهاوي الإفك والزور؟
إن الجزائر أمست بنتُها غرضا لكل رامٍ بسهم الغيِّ مأجور
ما بالُها هجرت آداب ملّتها؟ ما بالها أعرضت عن خير دستور؟
إن الذي بَرَأ الجنسين خوَّلها حقوقَها في كتاب منه مسطور

لو انَّها اقتبست من نوره وجنَتْ مِن روضِه التحقت في الطهر بالحُور
عافت تقاليدَها المُثلى وقد سطعت أنوارها وارتمت في كل ديْجور
ما جُل آرائها المستحدثات سوى مستورداتٍ مداها غيرُ مشكور
في كل مرحلة تزداد ظلمتها في الرأي فاقرأ عليها سورة النور

إن تأملا معجميا في قصيدة محمد العيد تقودنا بسهولة إلى اكتشاف التقاطع المكثف بين لغة الصحافة الإصلاحية -وهي كثيرا ما تتقاطع مع لغة الخطبة الدينية -ولغة الفقه في هذه القصيدة:

فتاة العصر/ منحرفا/ هجرت/ مأجور/ آداب ملتها/ خولها حقوقها / اقتبست من نوره عافت تقاليدها/ جل آرائها/ مستوردات/ في كل مرحلة تزداد ظلمتها/ سورة النور.

إن هذا المعجم الجاهز الذي يحضر بقوة في الخطبة الدينية والصحيفة الإصلاحية يقتل عنصر التشويق والإدهاش ويعطل مهمة إشراك المتلقي في إنتاج فيم النص الفكرية والجمالية. وهو رؤيويا يحصر المشكلة في مؤامرة حيكت ضد المسلمين والمسلمات.وهذه المشكلات نفسها هي التي نجدها في كثير من شعر أبي العتاهية الزهدي كما في قوله:

ما لي رأيتك راكبا لهواكا أظننت أن اللّه ليس يراك
انظر لنفسك فالمنية حيث ما وجهت واقفة هناك حِذاكا
خذ من حراكك للسكون بخطة من قبل أن لا تستطيع حِراكا
للموت داع مزعج وكأنه قد قام بين يديك ثم دعاكا
وليوم فقرك عدة ضيعتها والمرء أفقر ما يكون هناكا
لَتُجَهّزنّ جهاز منقطع القوى ولتشحطن عن القريب نواكا
ولَيُسلِمنّك كل ذي ثقة وإن ناداك باسمك ساعة فبكاكا(21)

إن التساؤل الذي لدى الشاعرين(ما بال سير فتاة العصر/ ما لي رأيتك راكبا لهواك) يفتقر إلى السياق الوجودي والوجداني الذي يعطيه أهميته، إذ أن أي سؤال في الشعر لا يحرك الأعماق الإنسانية ولا يطرح إحساسا عاما، وقلقا مزلزلا، لا يمكن أن يبرر فنيا، التساؤل يأخذ بعده الفني إذا ارتبط بدهشة حقيقية تدخلها تجربة

عميقة، وتتطلب رؤية إنسانية عظيمة ترحل بالقارئ من حروف القصيدة ومساحتها الصغيرة إلى سعة الفضاء الفلسفي المحير. أما أن تندهش القصيدة لمثل هذه المظاهر السلبية - مهما كان حجمها - فقد يكون ذلك دليلا مجسدا لعجزنا الاجتماعي البسيط.

4. اللغة والطرح المباشر بين أبي العتاهية ومحمد العيد آل خليفة

تأثر أبو العتاهية بالدور الإصلاحي الذي كان النثر يؤديه، ولاحظ الرتبة المحترمة التي تبوأها الناثر في المجتمع العباسي، بل لاحظ أن النثر في حد ذاته صار ديوان العباسيين، فما كان منه سوى أن عمد إلى الشعر يكلفه مهمة الإصلاح والتوعية والشرح والتبيين وهي أمور كان النثر ينجزها بإيجابية تصل حد إرباك السلطة السياسية التي كانت تعمد إلى منح الشهادة للكتاب بقتلهم محتجة بأسباب شتى متصلة في الغالب بالخروج عن الدين: كما كان الشأن في مقتل ابن المقفع وملاحقة إخوان الصفاء ومحاصرة التوحيدي الذي دفعته ظروفه إلى الكفر بما أنجز من أعمال.

لقد كلف أبو العتاهية لغة شعره إذن أداء التبليغ انطلاقا من قيم الدين الحنيف ممارسا كثيرا من النقد الاجتماعي والسياسي، مركزا على فكرة لازمة في زهدياته هي أن الموت متربص بالجميع:

أين القرون بنو القرن وذوو المدائن والحصون
وذوو التجبّر في المجالس والتكبّر في العيون
كانوا الملوك فأيُّهم لم يُفنه ريْب المَنون
أو أيهم لم يُلْفَ في دار البلى عِلْقَ الرُّهون(22)

وهي معان متقاطعة تقاطعا يصل حد التطابق مع قس بن ساعدة. وقد يعمد الشاعر إلى رصد المشاغل اليومية البسيطة فيقول:

من مبلغٌ عني الإمام نصائحا متوالية
إني أرى الأسعار أسعار الرعية غالية
وأرى المكاسب نزرة وأرى الضرورة غاشية
وأرى غموم الدهر رائحة تمر وغادية

وأرى اليتامى والأرامل في البيوت الخالية (23)

فالشاعر لا يكشف عن شيء خفي لا تراه عين راصدة لها ملكتها الرؤيوية الخاصة، إنما هو يعيد على الأسماع من القول ما هو معروف في النص التراثي، ومن المَشاهد ما هو مكشوف، وبناء عليه كان هذا الموقف أحوج ما يكون للأسلوب المتفرد الذي يعوض ندرة الفكرة غير المحققة بندرة فنية تتجسد في اللفظ والصورة والموسيقى وهذا كله لم يلتفت إليه النص، بعيدا عن المعنى البسيط للصدق الذي قد يفهم من قول الشاعر لبيد:

وإن أحسن بيت أنت قائله بيت يقال إذا أنشدته صدقا

فالصدق هنا لا علاقته بمفهوم الصدق الخلقي المساوي للحق ومطابقة الحقيقة لأن الشاعر يقول ذلك في السياق التالي:

ولا أُغير على الأشعار أسرِقها عنها غنيت وشر الناس من سرقا

وإن أحسن بيت أنت قائله بيت يقال إذا أنشدته صدقا(24)

فأحسن بيت إذن هو ما كان مبتكرا يحمل سمات الإبداع الأصيلة، بعيدا عن كل تقليد، بل وما كان في النهاية بعيدا عما هو معهود مكرور يعيد إحضار المعروف كما هو، عاكسا إياه كما تعكس المرآة الشيء، إذ المطلوب أن تظهر لنا الحياة في الشعر كما تظهر في النفس الشاعرة الشفافة ذات أبعاد جديدة وأن تؤدى بلغة لا تكتفي بإيصال الدلالة بل تتجاوزها إلى التأثير والإمتاع.(25)

فالصدق في هذا السياق الفني يتحقق حين تعرض في صناعة متميزة أو تكون صدى جماليا لفطرة فنية وطبع قوي ينفذ إلى أعماق جميل الكلم. إن المعاني التي يتشاطرها الشاعر والمتلقي لا بد لها من لغة شعرية متفردة كما ذهب إلى ذلك أدونيس الذي رأى بأن شعر الجاهليين كان يتناول المعهود من قيمهم ومفاهيمهم فما كان على الشاعر إلا أن يبتكر في فن تعبيره(26) وهذا الابتكار الفني الذي كان حتمية تمليها ظروف المعرفة المشتركة والذائقة المدربة لدى العرب في تلقي المقول الشعري المنشد هو الذي دفع نجيب محمد البهبيتي إلى تسمية العصر الجاهلي بالعصر الفني.(27).

غاية التبسيط في لغة محمد العيد آل خليفة

لا بد أولا من التوضيح بأن القصد من التبسيط في لغة الشاعر محمد العيد هو استعمال اللفظ الجاهز وليس اللفظ السهل. ذلك أن المستويات اللغوية تتضارب في النص الواحد عنده في كثير من المواضع، فهو يقول مادحا ابن باديس:

بمثلك تعتز البلادُ وتفخر وتُزهر بالعلم المنير وتزخر
طبعت على العلم النفوس نواشئا بمَخبر صدق لا يدانيه مخبر
نهجت لها في العلم (نهج بلاغة) ونهج مُفاداة كأنك "حيدر"(28)
حبتك عمالات الجزائر حرمة مشرفة عظمى بها أنت أجدر(29)

إن لغة محمد العيد في هذا النص محددة المتلقي، إنها متجهة إلى مثقفي جمعية العلماء الذين يعرفون الرموز المشار إليها مثل كتاب نهج البلاغة وحيدر، وبالرغم من ذلك ظهرت عبارة غامضة فما الفرق بين نهج البلاغة ونهج المفاداة؟ هل نهج البلاغة هو لغة الأدب ونهج المفاداة هو نهج التبليغ البسيط؟

وتتميز لغة محمد العيد بتعقد مهمتها في تتبع المناسبات الإصلاحية فها هو في هذه القصيدة يذكر مالك بن نبي وكتابه "الظاهرة القرآنية" في البيت السابع وينظم " تحية المسلم الجديد (بنوا) علي سليمان"، كما يرجع إلى التاريخ الإسلامي فيذكر الأعاجم الذين دخلوا الإسلام فصاروا شخصيات قريبة من روح الدين كما هو شأن سلمان الفارسي وصهيب الرومي، كما أشار قبل ذلك إلى الرسام الشهير إيتيان ديني الذي اعتنق الإسلام:

1 -زُفّت إليك عرائس الإلهام فطرحت عنك بَواليَ الأوهام
2 -وبحثت في الأديان بحثا مُنصفا فجنحْتَ بعد البحث للإسلام
3 -هذا هو الكنز الدفين كشفتَه ببصيرة نفذت وفكرٍ سامي
4 -(بُنْوا) لقد أبليت في حرب الهوى حَسَنا وما باليت باللوام
5 -ونصرت في باريس دين محمد بصراحة بَرِئت من الإبهام
6 -لو كان للإسلام فيه دولة مَرعيّة رفعتك فوق الهام
7 -بهرتك (ظاهرة)بدت من(مالك) فجلت دُجاك ببرقها البسّام
8 -إني أراك علوت قومك رتبةً وسلمت من شِرك ومن إجرام

9 -فالْحقْ بـ"إتيان" و"جونسو"رفعة وكرامةً واخلد على الأيام

10 -هذا هُدى من قام مضطلعا به أمّ الرجال وشَمّ كالأعلام:

11 -سلْمانُ فاق الفرس أجمعهم به وصهيب فاز به على الأرْوام

12 -وبلالُ ساد به على الأحباش ما دوى الأذان بمُطرب الأنغام

ثم يستغل الشاعر هذه الفرصة ويدعو أخانا "بنوا" قائلا:

13 -(بنوا) أمامك واجب فانهض به متقلدا ذكراك كالصمصام

14 -إن الحقيقة أصبحت مهضومة في الغرب تحت مواطئ الأقدام

15 -جلْجلْ بها كالرعد غير مجمجم وازأر بها غضبان كالضرغام

إن الشاعر يعمد إلى اللغة الجاهزة (أبليت في حرب الهوى حسنا) (الكنز الدفين) والشاعر في بحثه المُحسِّني قد يأتي بالغريب كما في قوله: (أمَّ وشمَّ). وهو يعبر عن بعض الأفكار الجديدة المتصلة بما جد في الحياة العقلية الجزائرية، فالظاهرة القرآنية الذي ألفه الأستاذ مالك بن نبي قد أثر تأثيرا قويا في هذا الفرنسي الذي اعتنق الإسلام.

لكن هذه اللغة الجاهزة تسمو بها تلك التناصات التاريخية الكثيرة التي تحول النص إلى قصيدة عالمة عارفة، وتلك الجوانب الصوتية متجانسة، إلا أن محمد العيد حين يتناول القضايا السياسية من إحياء لذكريات الثورة وما إليها اقترب من روح النشيد والمناسبة كما في قوله من الطويل:

نوفمبر قد وافى على اليُمْن والبشرى بعاشرة الذكرى لثورتنا الكبرى

نوفمبر قد وافى فأهلا ومرحبا بشهرٍ ركبْنا فيه مركبَنا الوعرا

نوفمبر قد وافى الجزائر طاويا من الثورة الكبرى سنين لها عشرا

نوفمبر قد وافى فذكرنا الفدى وثورتنا العظمى وأعوامها الغُبرا(30)

فإذا كان النص الديني الزهدي العتاهي قد تناص مع النص الديني القرآني، فإن النص السياسي لدى محمد العيد قد تناص مع النص السياسي الإصلاحي متمثلا خاصة في لغة الخطبة السياسية البسيطة ولغة الصحافة، دون أن ينسى التناص مع النص القرآني لأن الدين مرجعية الإصلاح الأولى.

وهكذا نجد أن لغة أبي العتاهية التبسيطية كانت شديدة الاتصال بالمعارف الدينية ولغة الزهد، ثم تدرجت انطلاقا من هذا الزهد إلى موضوعات الحياة اليومية لتعالجها معالجة أحادية الرؤية، وقد تحكمت فيها الرؤية الزهدية التي يبدو هذا الزهد بها الحل الأوحد لكل المعضلات الاجتماعية والسياسية.

أما لغة محمد العيد آل خليفة فقد تماشت مع مجالات متعددة وفقا لطبيعة الموضوع، لذلك نجد أنفسنا أمام مستويات لغوية تفرضها هذه الموضوعات المتشعبة الاتجاه تارة إلى الماضي والحضارة والدين، وتارة أخرى إلى السياسة والغرب الاستعماري وعلاقة الإسلام بغير المسلمين. فهذه اللغة عنده تحاصرها الغايات الكبرى التي كلف الشاعر شعره بأدائها، وهي متفاوتة التعقيد، تتطلب جهدا كبيرا ووقتا أطول، إلا أن سرعة المهمة التوعوية والإصلاحية والثورية والتشييدية، كل ذلك عمل على صوغ لغات عدة أو معاجم متنوعة في شعر محمد العيد آل خليفة الذي قدم صورة واضحة عن أنموذج من الشعر الجزائري الملتزم بالقضايا الوطنية الحيوية وشتى مشكلات الأمة العربية والإسلامية في مرحلة حساسة من تاريخ الشعر الجزائري، بل ومن تاريخ الجزائر برمتها.

الهوامش

1. يوسف أبو العدوس، الأسلوبية الرؤية والتطبيق، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، عمان، الأردن، 2007م، ص159 ، فيلي ساندرس، نحو نظرية أسلوبية لسانية. ترجمة خالد محمود جمعة، ط1 ، دار الفكر بدمشق،ط1 ، 1424هـ، 2003م، ص22.
2. محمد زغلول سلام، تاريخ النقد الأدبي والبلاغة حتى القرن الرابع الهجري، منشأة المعارف بالإسكندرية، ص30.
3. عمر الدسوقي، في الأدب الحديث، الجزء الأول.ط 8، دار الفكر العربي، مطبعة الرسالة 1970م ، ص ص 186، 187.
4. مجاهد عبد المنعم مجاهد، جدل الجمال والاغتراب، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، ص70.
5. بيير جيرو، الأسلوبية، ترجمة منذر عياشي، مركز النماء الحضاري للطباعة والترجمة والنشر، حلب سوريا، ط2، 1994 ، ص35.
6. محمد نجيب البهبيتي، تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجري. دار الفكر، بيروت لبنان،ص ص 353، 354.
7. قدامة بن جعفر، نقد النثر، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، ص86
8. لمزيد من التفصيل ينظر تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجري، لمحمد نجيب البهبيتي ص335 وما بعدها
9. أدونيس، الثابت والمتحول، ج1 ، ص108.
10. أبو العتاهية، الديوان، شرح وفاء الباني قمر، بإشراف حنا الفاخوري، دار الجيل بيروت،ط1 ، 2003 ، ص.255
11. المصدر السابق، ص ص 11، 12، محمد نجيب البهبيتي، تاريخ الشعر العربي حتى أواخر القرن الثالث الهجري، ص355.
12. أبو العتاهية، الديوان، شرح وفاء الباني قمر، ص ص 202، 203 ، ديوان الأنوار الزاهية، جمع أحد الآباء اليسوعيين، مطبعة الآباء اليسوعيين بيروت لبنان، 1886م، ص309.
13. نجيب محمد البهبيتي، تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجري، ص398.
15. إبراهيم حمادة، طبيعة الدراما، دار المعارف مصر، ص26.
16. محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث، دار الثقافة بيروت لبنان، دار العودة بيروت لبنان، 1973م ص402.
17. أبو العتاهية، الديوان، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، ط3، 2002م، ص179.

18. ولد بتاريخ 1904/08/28م بعين البيضاء. نشأ في عائلة متعلمة محافظة وحفظ القرآن الكريم وأصول الدين عن علماء البلدة، ثم انتقل إلى تونس (جامع الزيتونة) للتحصيل، تولى إدارة مدرس الشبيبة الإسلاميةبالجزائر العاصمة في 1927 م وفي مدارس أخرى لمدة 12 اثني عشر عاما ، أسهم في هذه الفترة في تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين. بعد اندلاع الثورة الكبرى اعتقلته السلطات الفرنسية، ووضعته تحت الإقامة الجبرية في بسكرة. كان كثيرا ما يتردد على موطنه الأصلي بواد سوف و الزاوية التجانية بتماسين. كان يلقب شاعر الشباب، وشاعر الجزائر الحديثة، وشاعر الشمال الإفريقي.

19. مجمع اللغة العربية القاهرة مصر، مكتبة الشروق الدولية، ط4، 1425هـ، 2004م، المعجم الوسيط مادة غوث ص665، "غاثه الله نصره و أعانه"

20. محمد العيد آل خليفة، الديوان، سلسلة "شعراء الجزائر" ش و ن ت الجزائر، ص ص112، 113.

21. أبو العتاهية، الديوان، ص156.

22. أبو العتاهية، الديوان، ص216.

23. المصدر نفسه، ص 258.

24. عبد الله محمد الغذامي، القصيدة والنص المضاد، المركز الثقافي العربي بيروت لبنان/ الدار البيضاء المغرب، ط1، 1994م، ص ص 45، 46.

25. أوستن وارين ـ رينيه ويليك، نظرية الأدب، ترجمة محيي الدين صبحي مراجعة حسام الخطيب، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية دمشق 1972م، ص .23

26. أدونيس، الشعرية العربية، دار الآداب بيروت، ط2، 1989م، ص6.

27. نجيب محمد البهبيتي، تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجري،

28. هو الصحابي علي بن أبي طالب، وإليه ينسب نهج البلاغة.

29. محمد العيد آل خليفة، الديوان، ص156.

30. محمد العيد آل خليفة، الديوان، ص458.